سـؤال الهجرة و الترحال في الشعر الشعبي الجزائري

الأستاذ عبد القادر فيطس

جامعة زيان عاشور بالجلفة

الملخص:

يحاول هذا البحث الإجابة عن رغبة الشاعر الشعبي الجزائري الملحة في تتبع حركية الزمن الساكن والزمن المتحرك في التعبيـر عن لوعـة فراق الوطـن ، الأرض ، القبيلة ، العائلـة ، الحبيبة .... ، واكتشاف الذات الآخر ، ومعرفة الجغرافيا ، الاتصـال .... ، أثناء التنقل عبر الهجرة والترحال ، طوعـا أو قسرا من خـلال أنمـوذج شعـري شعبي.

Résumé :

La question de l'émmigration et du voyage dans la poésie populaire Algérienne

Cette recherche essaie de répondre au désire ardent du poète populaire algérien de suivre l'écoulement du temps statique et mobile pour exprimer son ardeur quand il quitte sa patrie, sa terre. sa tribu, sa famille, bien aimée … et pour découvrir lame, l'autre et savoir la géographie, la communication et ce pendant qu il se déplace dans son émmigration et son voyage facultatif ou obligatoire d'après un modèle poétique populaire.

Summary :

The question of the immigration and the voyage in the poetry Algerien and popular

This research tries to answer the strong desire of popular poet in following how the static and moving, time passes in order to express his strong desire while leaving his home land, his earth, his tribe, his family, his beloved … and in order to find out the soul, the other and know the geography, the communication and this when he moves in his immigration and his voyage willingly or unuvillingly throughout a popular poetry model.

لا شك أن موضوع الهجرة والترحال من أهم المواضيع خصوبة في الآداب الإنسانية قديمها وحديثها المـدون منها والشفهـي ، فمنذ القدم عرف المجتمع الأول في التاريخ ظاهرة الهجرة والترحال ، وأدرك مبتغاهـا واعتقد أنها من منح القدر ، حيث يبدأ التأريخ لها منذ الولادة باعتبارها هجرة من رحم الأم وانتهاء بالوفاة باعتبارها هجرة إلى عالم الغيب ، مرورا بهجرات جبرية أو طوعية في الدنيا من أجل البحث عن حياة أفضل .

ويبدو أن أول رحلة تبدأ مع آدم عليه السلام ، رحلته الأولى من العدم إلى الوجود ، ورحلته الثانية من الجنـة إلى الأرض ، ومنذ ذلك كثرت رحلات الإنسان والقبيلة والمجتمع للبحث عن الاستقرار والعيش الأفضل وكسب التجارب والخبرات التي تختزن في الذاكرة ويعبر عنها بمختلف أشكال التعبير الشفوية .

وإذا عدنا إلى المعاجم بحثا عن تعريف لغوي لكلمة " هجر " فإنها لا تفيدنا في الاقتراب من المعنى الحقيقي أو الدلالة المنشودة ، فلسان العرب [1] يقف عند معنى الاعتزال بمعنى هجر المكان هجرا وهجرانا ، مال واعتزل كأن

نقول هجر زوجته أي اعتزلها دون أن يطلقها ، وهجّر هجرا بمعنى سار في الهاجرة ، وهجر النهار أي اشتد حره ، والهجرة الخروج من أرض إلى أرض غيرها ...

وفي باقي المعاجم لا تخرج اللفظة بمشتقاتها عن المعاني السابقة ، حتى وإن كانت تركز على الوحدة الدلالية في الاستعمال الجذري لمادة " هجر " .

والهجرة والترحال في اللغة [2] تعنيان الانتقال من موطن إلى آخر ، ومن حيث المدلول نجدها تعني الترك والإعراض والرفض والقطيعة ...

وتتخذ الرحلة شكلين ، رحلة هجرة أي مغادرة ، ورحلة وفادة .

والرحلة نوعان ، رحلة وهجرة قسرية مرتبطة بالاحتلال أو إكراهات أنظمة حكم مستبدة ، أو الهروب من واقع مزري ، ورحلة طوعية اختيارية تتعلق بالرغبة في الاكتشاف أو التعلم أو السياحة أو البحث عن الحرية ، وواقع أفضل من واقعه ...

فالرحلة والهجرة في التراث الشفهي تعني ((رحيلا موحشا يحمل فيها المهاجر داخله كيانه اللغوي والثقافي والحضاري ، ولا ينقطع عن هموم ذاته الفردية أو الجماعية ، ولا يبتعد عن تساؤلاتهما المصيرية)) [3] والتأثيرات التي تعبر عن لوعة الغربة والفراق ، والحنين والشوق ... للوطن والقبيلة والأرض ...

وتظهر في أشكال التعبير الشفوي المختلفة .

وقد ساهمت ظاهرة الهجرة في تعمير أصقاع الأرض ، وفي تعلم اللغات واللهجات والاستفادة من الخبرات والتجارب بين القبائل والمجتمعات والشعوب ، ومنها تشكلت الحضارات ، وتوطد التواصل والتعارف بين البشر حتى تشكّل التراث الشفوي والمدون ((لا شك أن عملية الترحال تجدد المرتحل في ثقافته وفي خبراته وفي نظرته لنفسه وللعالم من حوله ، لهذا كانت هذه الظاهرة على مدى العصور فرصة استثنائية لتحصيل ثقافة خاصة ومختلفة عن ثقافة الموطن الأول)) [4] .

والهجرة والترحال من أكثر المواضيع إثارة في التثقيف ، حين الاختلاط بالآخر (الجماعة ، القبيلة ، المجتمع) والتطبع بطباعه ودراسة أخلاقه ونظمه ، والتحقق من عاداته والإطلاع على تقاليده والاستفادة من تجاربه وثقافته، كما تساعد على تقييم نظم الموطن ومسقط الرأس ، وتساهم الرحلة في اكتشاف ومعرفة الآخر ، فقد يحصل فيها معرفة الجغرافيا والاتصال بين القبائل والجماعات ، واكتساب معرفة الواحد بالآخر في اللغة والتقاليد والعادات ...

والبحث عن المعاش وطلب الرزق والنشاط المستمر عن المقام الأفضل والمكان الأنسب والحياة الفضلى ((الترحال في أصله ضرورة معاشية لطلب المرعى والماء ، ونشاط دائم تحدده الطبيعة وتبدّلاتها المختلفة . إلا أنه كثيرا ما يتحول إلى معطى ثقافيا وعاملا سلوكيا يمنح المترحلين مزايا كثيرة كتعزيز القوة وإذكاء المخيلة)) [5] ولا تقتصر الرحلة والهجرة على الإنسان فحسب ، بل تشمل الحيوانات

والطيور وغيرها من المخلوقات التي تقاسم الإنسان العيش في هذا الكون وإنما تعتمد في هجرتها على الغريزة عكس الإنسان الذي يعتمد على خبراته الموروثة وتجاربه المستحدثة .

ويرجع الاهتمام بموضوع الرحلة والهجرة في التراث العربي قبل ظهور الإسلام ، حيث كان العرب يقومون برحلات بهدف طلب الرزق أو التجارة مثل رحلة الشتاء والصيف لعرب قريش التي ذكرها القرآن الكريم [6] .

وبعد ظهور الإسلام بدأت بعض الهجرات كهجرة بعض المسلمين إلى الحبشة [7] ، وأكبر حدث هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم [8] إلى يثرب ، وتوالت الهجرات بعد ذلك ، وتحققت بسببها الفتوحات والانتصارات واكتشفت بها أمصار وبلدان لم يكن يعرف العربي عنها قبل ذلك إلا الترر اليسير من الأخبار كان أكثرها يعج بالخرافات والأساطير والغرائب .

ولقد دون بعض الرحالة [9] رحلاتهم وكتبوا كل ما وجدوه في طريقهم ، ووصفوا الصعوبات التي ارتطموا بها ووقفوا عند المواقف المثيرة ، وقد كان أكثر هؤلاء أدباء ، فجاءت عباراتهم مشوقة وألفاظهم جزلة ومعانيهم واضحة من خلال اساليبهم القصصية ، ومن هذا أسهموا في نقل ثقافات الشعوب التي زاروها وعرّفوا بعاداتهم وتقاليدهم ، ونقلوا مشاهدا وصورا دقيقة للبلدان التي حلوا بها ، وبيّنوا طبيعة سكانها وجغرافية الأرض والأحوال الاجتماعية والنظم السياسية ... وعلى حد تعبير الباحث الجاسر حمد [10] الذي كتب حول رحلات الحج وبيّن ما قدم أولئك الرحالة عبر كل مراحل التاريخ الإسلامي أدبا وتراثا مهما ساهم في نقل كثير من الصور الجميلة والمشاهد المميزة للبلاد التي زاروها .

أما في الجزائر فقد عرفت ظاهرة الهجرة والترحال عبر مراحل تاريخها ، سواء في شكل أسفار أو في شكل رحلات ، قد تكـــــون فرديـــة أو جماعية ، داخلية أو خارجية ، اختيارية أو إجبارية ، إذ نسجل سكان الصحراء الذين ينتقلون إلى التـــــل (الشمال) باعتباره مكانا يجذب الهجرات نظرا لما تتمتع به أراضيه وتربته الخصبة وتعدد تضاريسه .

وهذه الهجرات تمثل التنقلات التي كان يقوم بها سكان الجنوب إلى المناطق السهبية في الوسط أو إلى التل بالشمال ، أو تنقلات سكان الوسط زمن الجفاف إلى مناطق التل في الشمال ، وكان العامل الاقتصادي دافعا لتلك الرحلات والهجرات الداخلية أو الخارجية ، فالحالة الاقتصادية في شمال الجزائر أفضل من الوسط والجنوب على مدى تاريخ الجزائر القديم والحديث والمعاصر ، فقد كان سكان المناطق الوسطى والجنوبية يقصدون منطقة التل (الشمال) بحثا عن الأراضي الخصبة والمرعى والماء ، وبحثا عن فرص العمل في مزارع المعمرين الفرنسيين ، أما هجرة الجزائريين إلى الخارج فكانت إلى فرنسا من أجل البحث عن العمل ، ورحلات أخرى إلى منطقة الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة ، وأحيانا بهدف علمي وثقافي إلى تونس ومصر وسوريا ....

وإذا كانت الرحلة قديمة قدم الإنسان ومرجعا للكشف اللغوي والجغرافي ، والكسب المعرفي فهي لصيقة باهتمام التراث الشعبي الشفهي . والحديث عن هذا لا يعني بالضرورة إلحاق ذلك بأدب الرحلة وإنما القصد من ذلك

التركيز على تأثيرها على ذهنية المبدع الشعبي أو بالأحرى الشاعر الشعبي كما أثرت في بعض أعمال المؤرخين والجغرافيين .

لقد تحدث الشعراء الشعبيون عن مشاهدهم ووصفوا الفضاءات والأمكنة التي مكثوا بها ، أو مروا بها ، ونقلوا العديد من الصور الجميلة في قالب فني ، فالإصرار الدائم على الترحال وعدم الاستقرار في مكان واحد ، هذه الرغبة الملحة والجامحة تنبع من إدراكهم بقوة الزمن ، فالزمن يحكم بالفناء والموت على ما هو ساكن ومستقر وجامد ، لذلك يعتقدون بوجوب متابعة السير والحركة والإندماج في صيرورة الزمن من أجل البقاء والحياة .

وكل الأمكنة التي تستجيب لشرط العيش والهناء والقابلة لاحتضانهم تمثل الوجود ، وهذا الاعتقاد يرسخ فكرة ارتباط الهجرة والترحال بالتراث الشفهي، فحينما عرفوا قيمتهما واعتبروهما قوة ذاتية واجتماعية تحميهم من الخضوع ، ضمن هذه العلاقة ازدهر الخطاب الشفهي ، وهذا ما جسدته الأشعار الشعبية والمأثورات وأشكال التعبير الشفوية .

وتجارب الهجرة والترحال كثيرة في الشعر الشعبي الجزائري ، ولكثرتها لا يمكن حصرها في نماذج ، وإنما اخترنا حالة نحاول من خلالها البحث في هجرة داخلية قسرية إجبارية للشاعر الشعبي عبد الله بن كريو .

جاء في ديوان عبد الله بن كريو الذي جمعه وحققه الباحث إبراهيم شعيب نقلا عن سي حمزة أبي بكر في كتابه الموسوم بـــــــ: الشعراء الثلاث الجزائريون الشعبيون ((هو عبد الله بن القاضي الحاج محمد بن الطاهر ولقب عائلته هو التخي)) [11] ولد عام 1871 بمدينة الأغواط وإليها ينسب ، اشتغل بالقضاء زمن الاحتلال الفرنسي [12] . توفي في : 1921/10/27 م . شعره يزاوج بين غرضين الغزل والوصف ، وحينما نتحدث عن حياة الشاعر عبد الله بن كريو خارج مدينة الأغواط فإننا – ضمنيا – نتحدث عن هجرة قسرية تبدأ منذ سنة 1899 م إلى سنة 1903 م عندما نفته سلطات الاحتلال الفرنسي إلى مدينة المنيعة بصفته قاضيا ، التي عاش فيها العزلة والتهميش والاحتقار ، فلم يستقبلوه و لم يرحبوا به كما عبر عنها في قصيدة " المنيعة " [13] ،فلم تكن هذه الهجرة إرادية واختيارية وإنما كانت إجبارية تعسفية من السلطات الفرنسية مصرحا بذلك في قصيدة " الريم " [14] التي منها :

قلتلهـــا يا غايتي ما هي منـــي قوانيـــن الروم علينـــــا جرايا
اسبابي دبيش من قبلـــة جـــاني وحروف لعلوان يلقو باسمايا
شيف لبيرو طالب عني قال أيام قلال وتكون هنايا
راني قـــادي للمنيعة يا ديني وإذا عندك نيف نديك معايا

يبدو أن سبب هذا النفي ظهر بعد قصيدة " جيت نوسع خاطري " [15] التي أثارت حفيظة السلطات الفرنسية التي دبرت له مكيدة تغزله بابنة أولاد بن سالم من قبيلة الزعانين حسب الباحث إبراهيم شعيب [16] ، الذي يرى أن ظاهر القصيدة غزلي يدافع فيها عن امرأة ، وفي الحقيقة هي مدينة الأغواط التي قصد أن يرمز لها بالأنثى ويدافع عنها من خلال انتقاده لسياسة الاحتلال الفرنسي ، صورها وكأنها محاصرة منتهكة .

وعلى الرغم من تضارب الروايات : الرواية الشعبية ، المصادر المكتوبة ، النص الشعري (القصيدة) إلا أن الثابت هو محاولة الشاعر نفي التهمة الملفقة ورد تجني الآخرين عليه ، وكشف سبب تشويه سمعته ، وفك خيوط المؤامرة حينما أراد أن يصرح في شعره ويتيح للقارئ إمكانية تجاوز الشكل الظاهري للقصيدة الذي يبدو غزلا بأنثى دون التصريح باسمها بالاعتماد على الرمز والتعريض .

والحقيقة أن مضمون القصيدة يوحي بموضوع ثوري أظهر الشاعر موقفه السياسي بذكاء ونقده اللاذع للاحتلال الفرنسي دون مواجهة مباشرة وعلانية واضحة .

فرغم الضغوط في المنفى إلا أن الشاعر كان يفكر غير مقيد ، بعيدا عن مدينته وقبيلته وخاضعا لنظم الاحتلال العاتية ، يعيش خارج المطلق الجغرافي ، ومتلائما مع ظروف المنفى بدلا من الإذعان له والخضوع لنواميسه .

وارتباطه بالمكان (الأغواط) يجعله أكثر وفاء له ما دام هذا المكان يثير فيه ، ولديه سؤال الانتماء والمواطنة والإحساس بالزمن والشعور بالمحلية .

في هذا التفكير الدائم بالمكان والإحساس بأمل العودة يظهر الاتصال الوثيق بين مدينته والهجرة . هذا التنقل الإجباري أرجعه بعد أربع سنوات إلى قابلية الاحتضان والاستجابة للعيش في مدينته ، وأنهى مأساته وألمه بتقديم استقالته من القضاء ، ورجع إلى مدينته غير آبه بما ينجر عن هذا القرار من عواقب ، ثم يعيش فترة في مدينته إلى غاية 1908 م تاريخ إعادة إدماجه في نفس المنصب بغرداية ، ثم إلى بريزينة حيث صهره زوج أخته أم الخير مسير شؤون بريزينة الذي أمرته السلطات الفرنسية بمراقبته . وأثناء الحرب العالمية الأولى يتخذ الشاعر موقفا مناهضا لفرنسا ويستمر في ذلك ...

وكانت نهاية معاناته فقدان بصره ويدخل مدينته أعمى ، وقد اختلفت الروايات في سبب ذلك ، ومع ذلك فإن رجوعه إلى مدينته أوقد بصيرته ، وألهب شاعريته ، وظل إحساس الغربة بالاحتلال يلازمه إلى غاية وفاته .

وتبقى الهجرة بمعاناتها ومتعتها إلهاما للشعراء الشعبيين على مر العصور .

الهوامش و الإحالات :

1- ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة " هجر " المجلد السادس ، دار صادر ، بيروت لبنان ط 1 عام 1997 م ص من 306 إلى 308 .

2- ينظر : لويس معلوف ، المنجد في اللغة والأدب والعلوم ، مادة " هجر " ، المطبعة الكاثوليكية بيروت لبنان ط 5 دت ، ص 855 .

3- إبراهيم رضا ، مقال : الهجرة والترحال أساس التعارف والتثاقف بين الشعوب والحضارات ، وقفة مع الظاهرة في التراث العربي والتراث الأمازيغي الشفاهي ، مجلة التراث الشفاهي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، جامعة محمد الخامس ، أكدال عدد 163 ، 1431 ه -2010 م ، ص 31 .

4- ينظر : حسين محمد فهيم ، أدب الرحلات ، سلسلة مجلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، عدد 138 ، يونيو 1989 م .

5- إبراهيم الحسين ، مقال : خاصية الترحال في ثقافة وفكر إنسان الصحراء ، مجلة التراث الشفاهي ، سؤال الهجرة والترحال ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، جامعة محمد الخامس أكدال ، عدد 163 1431هـ /2010 م ، ص 135

6- القرآن الكريم ، قراءة ورش ، سورة قريش .

7- ابن هشام ، كتاب السيرة ، تهذيب عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان، دت ص : 124 و 125

8- المصدر نفسه ، ص من 125 إلى 138 .

9- من أشهر الرحالة العرب :

- الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، ولد بسبتة (شمال المغرب) نحو عام 493 هـ ومات سنة 560 هـ ، يعتبر أحد كبار علماء الجغرافيا، كان كثير الأسفار والرحلات دوّن ذلك في كتابه " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " ، استخدمت خرائطه في تحديد الاتجاهات والبحار والأنهار والجبال والمرتفعات والمدن والبلدان وغيرها ....

– ابن جبير الأندلسي محمد بن أحمد الكناني ، ولد في بلنسية (اسبانيا) عام 540 هـــ ، كان كاتم سر أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين، ورحلته دوّنها في كتابه الموسوم بـــ : " كتاب تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار " .

– ابن بطوطة ولد عام 703 هـــ بطنجة ، يعد هذا الرجل أعظم رحالة عرفته الإنسانية ، دامت رحلاته 29 عاما ، زار كثيرا من البلدان والأمصار ، واتصل بالعديد من الملوك والأمراء ، كان ينظم الشعر ويحسن عديد اللغات واللهجات ، توفي بمراكش سنة 779 هـــ .

دوّن كل رحلاته في كتاب " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " ترجمت رحلاته إلى عديد اللغات

– ابن فضلان : ولد في القرن العاشر الميلادي ، عاش في العصر العباسي زمن خلافة المقتدر بالله الذي أرسله من بغداد إلا ملك الصقالبة في روسيا إجابة له لتعليمه الإسلام ، وذهب مع وفد من العلماء والفقهاء وأمضى ثلاث سنوات في بلاد الروس والصقالبة من سنة 921 هـــ إلى سنة 924 هـــ .

10- ينظر : الجاسر حمد ، أشهر رحلات الحج ، دار الرفاعي للنشر ، الرياض ، ط 1 ، 1982 م .

11- عبد الله بن كريو ، الديوان ، جمع وتحقيق إبراهيم شعيب ، مطبعة رويغي ، الأغواط ، ط 2 ، 2004 م ، ص 20 .

12- ينظر : المصدر نفسه ، ص 22 وما بعدها .

13- المصدر نفسه ، ص 107 .

14- المصدر نفسه ، ص 140 و 141 .

15- المصدر نفسه ، ص 71 و 72 .

16- ينظر : المصدر نفسه ، ص 31 وما بعدها .

قائمة المصادر والمراجع

– القرآن الكريم ، قراءة ورش

1 – إبراهيم الحسين ، مقال : خاصية الترحال في ثقافة وفكر إنسان الصحراء ، مجلة التراث الشفاهي ، سؤال الهجرة والترحال ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، جامعة محمد الخامس أكدال، المغرب، عدد 163 ، 1431هـــ /2010 م

2 – إبراهيم رضا ، مقال : الهجرة والترحال أساس التعارف والتثاقف بين الشعوب والحضارات ، وقفة مع الظاهرة في التراث العربي والتراث الأمازيغي الشفاهي ، مجلة التراث الشفاهي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، جامعة محمد الخامس ، أكدال ، المغرب ، عدد 163 ، 1431 ه -2010 م

3 – الجاسر حمد ، أشهر رحلات الحج ، دار الرفاعي للنشر ، الرياض ، ط 1 ، 1982 م

4 – ابن هشام ، كتاب السيرة ، تهذيب عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان، دت

5 – حسين محمد فهيم ، أدب الرحلات ، سلسلة مجلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، عدد 138 ، يونيو 1989 م

6 – لويس معلوف ، المنجد في اللغة والأدب والعلوم ، المطبعة الكاثوليكية بيروت لبنان ، ط 5 دت

7 – ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد السادس ، دار صادر ، بيروت لبنان ط 1 عام 1997 م
8 – عبد الله بن كريو ، الديوان ، جمع وتحقيق إبراهيم شعيب ، مطبعة رويغي ، الأغواط ، ط 2 ، 2004 م